

علاقة اللغة بالفكر والثقافة وجهود الفلاسفة المسلمين فيها

(رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا أنموذجاً)

**The relationship of Language to Thought and Culture and the efforts
of Muslim philosophers in it
(Epistle of the Brethren of Purity and loyal Friends as a Sample)**

د. محمود أحمد موسى¹*

¹الجامعة الإسلامية العالمية (ماليزيا)، mahmoodmusa@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2023/04/17 تاريخ القبول: 2023/06/19 تاريخ النشر: 2023/12/01

الملخص:

يهدف المقال إلى إبراز علاقة اللغة بالفكر والثقافة من وجهة نظر الفلاسفة المسلمين، خاصةً إخوان الصفا وخلان الوفا مع ذكر أهم مساهمتهم اللغوية في هذا المجال بإيجاز. تعد رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا من أهم ما كتب في الفلسفة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، وقد تناولت تلك الرسائل قضايا عديدة ومنها اللغة؛ لذلك يسعى البحث إلى دراسة بعض القضايا اللغوية لها ارتباطاً بمسألة **اللغة والفكر**، وما يندرج تحتها أو ما يتعلق بها مثل علم اللغة النفسي والاجتماعي، قضية اللفظ والمعنى؛ فضلاً عن البلاغة وهكذا. وقد توصل البحث إلى أن لإخوان الصفا وخلان الوفا مجهوات لغوية فريدة، ولهم فضل السبق في كثير من القضايا، ويتميز منهجهم في تناول القضايا اللغوية عن غيرهم.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الفكر؛ الفلاسفة؛ إخوان الصفاء وخلان الوفاء.

Abstract:

The article aims to highlight the relationship of language to thought and culture from the point of view of Muslim philosophers, especially the Ikhwan al-Safa' and Khilan al-Wafa, while briefly mentioning their most important linguistic contribution in this field. The Rasa'il (Encyclopedia) of the Ikhwan al-Safa' and Khilan Al-Wafa are among the most important books in Islamic

* د. محمود أحمد موسى.

philosophy in the third century AH, Rasa'il (Encyclopedia) dealt with many issues, including language, so the research seeks to study some linguistic issues related to the issue of language and thought, and what falls under it or what is related to it, such as psychological and social linguistics, the issue of pronunciation and meaning, as well as rhetoric and so on. The research has found that the Ikhwan al-Safa' and Khilan al-Wafa have unique linguistic arguments, and they have the virtue of being ahead of many issues, and is distinguished by an offensive approach in addressing linguistic issues from others.

Keywords: language, thought, philosophers, Ikhwan al-Safa' and Khilan Al-Wafa. (Brethren of Purity and loyal Friends)

1. مقدمة :

إن العلاقة بين الفكر واللغة والثقافة علاقة قوية لا يمكن الفصل بينها؛ إذ بالفكر يعبر الإنسان عن ما يجوش في خاطره ويتسم ما يبوح به بالثقافة المؤثرة والتي اكتسبها من المجتمع أو البيئة التي يعيش فيها.

ولقد دار نقاش طويل في أي من اللغة والتفكير أسبق؟ أ يوجد فكر بلا لغة؟ أم يوجد لغة بلا تفكير؟ لكن الذي يركز عليه البحث هو علاقة بين اللغة والفكر والثقافة؛ لذلك نجد كولر (coller) يؤكد بأن اللغة تعد جزءاً لا يتجزأ من عملية التفكير وهي مرتبطة بتلك العملية التي تعد أداة توصيل للفرد بالعالم الخارجي لكي يتمكن من التعبير عن وجهة نظره حول قضية ما أو موقف معين. (عبد الهادي، 2009م، ص 129).

إذن، فاللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار وتوصيلها، وهي وعاء تحتوي الفكر حيث يوجد تأثير وتأثير بينهما، ويساعد وضوح العلاقة الذهنية على اختيار المفردات والتراكيب التي تعبر عنها. (عبد السلام، 2006م، ص 110).

أما الثقافة فهي " معرفة مكتسبة اجتماعياً " (هدسون، 1990م، ص 123). ونوع من المعرفة يمكننا تعلمه من الآخرين سواء عن طريق التعليم المباشر أو ملاحظة ومراقبة سلوك الآخرين. (هدسون، 1990م، ص 130)؛ فالعلاقة بين اللغة والثقافة تظهر جلياً في السلوك اللغوي والثقافي بحيث نستطيع الحكم على ثقافة الأشخاص من محصولهم اللغوي والذي يتمثل في عباراتهم وألفاظهم و أدائهم الصوتي

وطريقة نطقهم، مع ملاحظة حركاتهم الجسمية التي تصاحب كلامهم. (عبد السلام، 2010م، ص136).

مما سبق ذكره يصح القول بأن العلاقة بين اللغة والفكر والثقافة علاقة وثيقة لأنه لا يمكن إصدار اللغة بدون تفكير الذي يتمثل في البنية العميقة عند تشومسكي، وتحمل البنية السطحية سمات الفرد التي اكتسبها من المجتمع بغفل الثقافية السائدة والمؤثرة في الجماعة اللغوية التي يعيش بين أظهرها. إذن فاللغة والتفكير وجهان لعملة واحدة والثقافة تؤثر في كل منهما.

2. أهم الفلاسفة المسلمين الذين كان لهم إسهامات لغوية متميزة

بناءً على ما تقدم ذكره تتضح العلاقة المباشرة والملازمة بين اللغة والفكر وأنهما لا ينفكان بتاتا وأن الثقافة تؤدي دورًا هامًا بينهما سواء الثقافة بمفهومها العام أو بمفهومها الخاص؛ لذلك نجد لفلاسفة المسلمين إسهامات اللغوية جبارة، حيث نجد عندهم إسهامات في مسائل اللغوية التي لم توجد عند غيرهم، وكل ذلك بحكم علاقتهم القوية بالفكر والثقافة بكل ما تحويه من المعاني. ومن هؤلاء الفلاسفة الذين لهم إسهامات لغوية متميزة على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

1- إخوان الصفا وخلان الوفا (القرن الثالث الهجري)

2- ابن سينا (370هـ-427هـ)

3- ابن رشد (520هـ-595هـ)

4- ابن خلدون (732هـ-808هـ)

5- فخر الدين الرازي (543هـ-606هـ)

1.2 جهود إخوان الصفا وخلان الوفا اللغوية

إن مما لا شك فيه أن العرب حاولوا وضع قواعد اللغة العربية باعتمادهم على ملكاتهم العقلية التي ارتقت ارتقاءً قويا بفضل ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتعلق بها من المنطق، مما هيأ عقولهم ودعمها دعماً قويا، وجعلها مستعدة عقليا لاستنباط قواعد اللغة وعللها وأقيستها. (ضيف، 2008م، ص20).

ويلاحظُ أن شوقي ضيف تبنى الرأي الذي يشير إلى استفادة العرب من الثقافات الأجنبية المتمثلة في الفلسفة اليونانية وما يتفرع منها من المنطق في وضع قواعد اللغة العربية؛ لأن العرب قديماً كانت تتحدث بالسليقة من غير احتياجها إلى القواعد تضبط لغتها وتقوّم لسانها؛ ولكن عندما نزل القرآن للناس كافة واختلطت العرب بالأعاجم وبدأ اللحن ينتشر، فكرت العرب في وضع قواعد اللغة العربية بفضل ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية، ما هيا عقولهم لأنجاز هذا العمل.

2.2 نبذة عن إخوان الصفاء وخلان الوفاء

ومن الفلاسفة المسلمين الذين تحدثوا عن قضايا اللغوية إخوان الصفا وخلان الوفاء. "وهم الدعاة الذين كانوا يعملون تحت إمرة أئمة يتحدرون من عترة الرسول الكريم، ويخططون لأعمال بعيدة تعمدوا إخفاء أسمائهم عن عامة الناس حرصاً على حياتهم المهددة من ملوك وأمراء وخلفاء ذلك العصر" ولقد بالغوا في كتمان هدفهم ربما زهداً في الشهرة التي اعتقدوا أنها زائلة، أو طمعاً للحصول على الثواب..وقد وضعوا رسائلهم المسماة برسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء البالغ عددها اثنتين وخمسين رسالة، (تامر، 1995م، ج1، ص9)؛ وهي مشتملة على كثير من العلوم والفنون لكن تركيزها في الفلسفة والمنطق أكثر. إذا، يشكل البحث عن إخوان الصفا ورسائلهم لغزاً يحتاج إلى الحل، مؤلفون مجهولون والمؤلف أشبه ما يكون بمُشفّر؛ وعلى هذا يمكن القول: بأن دراسة موضوع إخوان الصفا وخلان الوفا لم يكن من الأمور السهلة عند مؤرخي العرب والفلاسفة المسلمين؛ إذ لفت انتباهه وأنظار فريق كبير من الباحثين والمستشرقين منذ بزوغ النهضة العلمية الحديثة، وكان جميع الذين جالوا في مجاله الواسع مجمعين على القول: بأن رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء هي أغز مادة فلسفية وأقوم حجة عقلية وأثمن تحفة فكرية ضمنت بين دفتيها البديع والإيجاز والحكمة والفنون من فلك وعدد وموسيقى وفن وهندسة ورياضيات وطب وأدب وتربية وعلوم أخرى أنتجها العقل الإسلامي في عصر مبكر من عصور الإسلام، وفي فترة كانت فيها الفلسفة ضرباً من الكفر والإلحاد. وزادوا فقالوا بأن هذه الرسائل تمثل الرقي العقلي والتطور الفكري وتعد من أقدم المصادر في الفلسفة الإسلامية للتعبير عن الثقافة الواسعة والتبسيطات للمعضلات الفلسفية، وأغنى موسوعة بالعلوم والآداب. (تامر، د.ن، ص6).

3. القضايا اللغوية في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا

لقد تطرق إخوان الصفاء في رسائلهم إلى كثير من القضايا اللغوية بعضها تتعلق بالبلاغة وعلم الدلالة وبعضها تتعلق بنشأة اللغة أو أصل اللغة وكذلك علم الأصوات؛ لذلك تناول كثير من الباحثين البحوث اللغوية في تلك الرسائل؛ لذلك ألف الدكتور أبو السعود أحمد الفخراي كتاب "أسماء" البحث اللغوي عند إخوان الصفاء، وذكر فيه أن كثيراً من اللغويين و الفلاسفة آثروا السكوت عن قضية نشأة اللغة؛ لشدّة عقدها إلا أنّها قد استهوت إخوان الصفاء في الحديث عنها، فقد عقدوا فصلاً مستقلاً في رسائلهم بعنوان "فصل في معرفة بداية الحروف" وفصل آخر "أصل الأصوات" تناولوا فيها نشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب. (الحداد، 2011م).

وعقد إخوان الصفاء فصلاً تحدثوا فيه عن بداية الحروف بعد التمهيد من خلق آدم عليه السلام الذي خلقه الله ناطقاً متكلماً وفصيحا مميّزا بالقوة الناطقة ولقد اقتضت حكمة الله أن يعلم آدم الأسماء وصفات الأشياء كلها وجمع هذه الأشياء في تسع علامات - حسب تعبيرهم - بأشكال مختلفة و متعددة مساة بأسماء التي جمعت أسماء جميع الموجودات وهذه العلامات انعقدت بها المعاني كلها كما اشتملت أجزاء الحساب كلها وهي "الحروف التي علمها الله سبحانه وتعالى، آدم عليه السلام، وهي التي يستعملها أهل الهند على هذه الصفة (123456789) .. فوضع على موجب الحكمة في العالم لتكون حروف (ا ب ت ث) وهي حروف الجمل المشتملة على كل الأشياء، مطابقة للأعداد الموجودة في الأصل وما تفرع منه ويحدث عنه ما لا يحصى ذلك إلا الله" (إخوان الصفا، تحقيق: تامر، 1995، ج3، ص114-116).

واستمر إخوان الصفا بالحديث عن الحروف؛ حيث ربطوها هذه الحروف بهيئة وأشكال المخلوقات، وأوضحوا أن من الحروف ما هو مستقيماً وهو ما يشبه الإنسان، ومنها المعوج وهو يشبه صورة الحيوان ، وهكذا يحدث في الأعداد أيضاً، فالألف خط مستقيم ولاثنان معوج وهكذا إلى آخرها. (إخوان الصفا، ج3، ص117).

وهذه القضية من القضايا التي لم يتعرض لها كثير من اللغويين والفلاسفة وإنما آثروا السكوت عليها، فنعرض لها إخوان الصفا وخلان الوفا ؛ حيث عقدوا لها فصولاً طويلة لمعالجة تلك القضية بمبادئ الفكر والفلسفة.

3.1 ملامح علم اللغة الاجتماعي والنفسي عند إخوان الصفا

إذا دققنا النظر في رسالة إخوان الصفا وخلان الوفا، نجد ملامح علم اللغة الاجتماعي والنفسي بارزة فيها؛ وذلك في معرض كلامهم عن "الفرق بين الصوت والكلام"؛ حيث بينوا أن "لكل قوم في اتساع حروفهم وسهولة تصرفهم في مخارج كلامهم، وخفة لغاتهم بحسب مزاجهم طبائعهم، وأهوية بلدانهم وأغذيتهم، وما أوجبت لهم دلائل مواليدهم، وماتولاهم من الكواكب في وضع أصل تلك اللغة في الابتداء الوضعي والمنهاج الشرعي، وما تفرع من ذلك الأصل، وما ينقسم من ذلك النوع." (إخوان الصفا، تحقيق: تامر، 1995، ج3، ص94).

وهذا يدل أن تأثير البيئة والبنية الخلقية تؤثر في اللغة أو الكلام؛ فضلاً عن نوعية الأغذية التي يتناولها القوم أو الجماعة اللغوية إن صحت التعبير - كما سرد ذلك إخوان الصفا، ويتفق هذا الرأي مع رأي ساير من رواد علم اللغة المعاصرين بأن "اللغة هي التي تجعل مجتمعا ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر فيها، وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته، وأن تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محدودة في ذاتها، ومحددة لنظرة المجتمع الذي يتكلمها للعالم وللحياة". (خرما، 1978م، ص180).

وكذلك تحدثوا في الفصل نفسه أن أصل الاختلاف في اللغات حدث لما كثر أولاد بني آدم، وانتشروا في بقاع الأرض واختار كل قوم أثناء نزولهم ذلك الأقاليم مختلفة فعقد لهم عقدا نشأ عليهم صغيرهم، ومات عليه كبيرهم. (إخوان الصفا، تحقيق: تامر، 1995، ج3، ص94).

ويتجلى ملامح علم اللغة الاجتماعي في فصل تحدثوا فيه عن سبب اختلاف لغات الناس وكلامهم بسبب اختلاف خلقتهم وهو ما يسمى بالفروق الفردية فقالوا: "إعلم إن اختلاف الناس في كلامهم ولغاتهم على حسب اختلاف أجسادهم وتركيباتهم، وأن أصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف

مخارج الحروف ونقصها عن تأدية ما يؤديه البليغ منها" (إخوان الصفا، تحقيق: تامر، 1995، ج3، ص94).

وهكذا تحدث إخوان الصفا عن المسائل اللغوية المختلفة منها:

2.3 قضية اللفظ والمعنى

تناول إخوان الصفا قضية اللفظ والمعنى بطريقة مختلفة تحمل الطابع الفلسفي العقلي؛ أي إنهم تحدثوا عنها من واقع نظرتهم العقلية للمعنى؛ إذ إن النظر في "المعنى" لا يقتصر على اللغويين فحسب بل شارك فيه كثير من العلماء في مجالات شتى وعلى هذا يقول محمود السعران: "فإن النظر في "المعنى" موضوع شار فيه علماء ومفكرون من ميادين مختلفة، شارك فيه من قدم الفلاسفة، والمناطق خاصة، وشارك فيه علماء النفس وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا حديثاً..". (السعران، 1963م، ص261).

ونلاحظ تطرق إخوان الصفا إلى الحديث عن المشترك اللفظي والترادف وضرورة الاهتمام بهما في دراسة المعنى والتفسير؛ إذ يقولون: "إن الأفاويل تختلف تارة من جهة اللفظ، وتارة من جهة المعنى، وتارة منهما جميعاً، وهي خمسة أنواع، فمنها المشترك في اللفظ المختلف في المعنى كقولك: عين الإنسان، وعين الماء. ومقابلتها هي المترادفة التي تختلف هي في اللفظ المتفقة في المعنى، كقولك البر الحنطة، ومنها المتباينة في اللفظ والمعنى جميعاً، كقولك: حجر وشجر، ومقابلتها المتواطئة، وهي المتفقة في اللفظ والمعنى جميعاً، كقولك هذا إنسان اسمه زيد، وهذا اسمه عمرو. ومنها المشتق أسماؤها وهي كقولك "الضارب والمضرب وما شاكلها من الأسماء المشتقة من الأفعال." (إخوان الصفا تحقيق: تامر، 1995، ج1، ص400-401).

كما يرون أن سبب اختلاق القراء يرجع إلى ما ذكر من الألفاظ المشتركة والمترادفة.. الخ وهذا مجال واسع أشبع بحثاً، ولكن الذي يهمنا إثبات تطرق إخوان الصفا إلى هذه المسائل المتعلقة باللفظ والمعنى.

3,3 اللغة والفكر

اهتم علماء اللسانيات المعاصرة بقضية العلاقة بين اللغة والفكر اهتماماً زائداً ما حمل بعضهم على ربط اللغة بالفكر؛ فقد عرف هنري سويت اللغة بأنها: "التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات". (السعران، 1963م، ص11).

يتضح مما سبق أن التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المكونة في الكلمات هو ما يُسمى اللغة عند هنري سويت وغيره من اللغويين المعاصرين مثل ساير؛ أي إن اللغة تُعد وعاء لحمل الأفكار وقالبا لها، ووسيلة لنقلها وعلى هذا يقول إخوان الصفا: "فالألفاظ إنما هي سمات وآلات على المعاني التي في أفكار النفوس وضعت بين الناس ليعبر كل إنسان عما في نفسه من المعاني لغيره من الناس عند الخطاب والسؤال". (إخوان الصفا، تحقيق تامر، 1995، ج1، ص398).

إذا، يمكن القول بأن اتجاه إخوان الصفا في هذه القضية هو الاتجاه الأكثر انتشاراً وقبولاً لدى اللسانيين المعاصرين - وإن لم يفصل الإخوان في هذه المسألة بما فيه الكفاية - إلا أن مساهمتهم فيها تُعد سابقة علمية متميزة؛ يمكن البناء عليها كما هو الحال في الدراسات اللسانية المعاصرة.

ولإخوان الصفاء معادلة رائعة بين اللغة والفكر وهي كالآتي:



يتبين مما سبق تميّز منهج إخوان الصفا في البحث اللغوي؛ إذ وازن الإخوان بين علم المنطق اللغوي وبين علم المنطق الفلسفي/الفكري؛ حيث يتعلق الأول بأمر جسماني محسوس، يركز على النطق اللفظي الذي يتكون من أصوات لها هجاء تصدر من اللسان أو أعضاء النطق الأخرى لتصل إلى أذن السامع وهي في هذه الحالة أمور جسمانية محسوسة؛ بينما يتعلق علم المنطق الفلسفي/الفكري بأمر روحي محسوس، تتصور النفس فيه معاني الأشياء في ذاتها ورؤيتها لرسوم المحسوسات في جوهرها وتميزها في فكرتها.

3,4 البلاغة

تحدث إخوان الصفا عن البلاغة منذ تلك الفترة المبكرة وقبل أن تأخذ دلالتها التي أرسى قواعدها علمائها المتأخرون؛ فقد حالوا تعريف البلاغة في اللغة، وهو تعريف لا يختلف عما ذكره أصحاب المعاجم والقواميس اللغوية؛ إذ يدور معناها كما ذكره على المبالغة أو التأدية. وأما في اصطلاحهم فهي "التوصل

إلى إفهام المعنى بأوجز مقال، وأبلغ كلام، ليعرف به المراد بأسهل المسالك وأقرب الطرق بواضح البيان وصادق المقال. ولايجاز في ذلك ما بلغت غاياته بيسر اللفظ، والإطناب ما بلغت غاياته بالتطويل، فصارت البلاغة حينئذ التوسط بين الحالتين، والتوصل إلى إدراك الغاية من أقرب الطرق". (إخوان الصفا تحقيق تامر، 1995، ج3، ص121).

كأن البلاغة تدور بين الاعتدال والتوسط في مقام الذي يقتضيهما، فلو أطنب المتكلم في مقام يقتضي الإيجاز لكان حديثه خالياً من البلاغة، أي لا يوصف بالكلام البليغ، وهكذا..

الخاتمة

مما سبق ذكره نستنتج ما يأتي:

أولاً: لإخوان الصفا منهجاً خاصاً في معالجة قضايا اللغة، وأنهم كذلك عالجوا كثير من المسائل اللغوية التي لم يتناولها كثير من اللغويين والمفكرين .

ثانياً: إن لتعبيراتهم مميزات وملامح الفلسفية، مما يؤكد ذلك تأثير الفلسفة والثقافة والفكر في لغتهم وهذا يؤكد لنا على أن علاقة بين اللغة والفكر والثقافة قوية، لا يمكن الفصل بينهما.

ثالثاً: إن لإخوان الصفا مجهودات لغوية متميزة، وأن هذه الجهودات بحاجة إلى التنقيح، وإخراجها بأثواب جديدة يفهما القارئ المبتدئ.

رابعاً: تناول إخوان الصفا جدلية اللغة والفكر من زاوية أخرى، وأن اتجاههم في هذه القضية هو الأكثر انتشاراً وقبولاً لدى اللسانيين المعاصرين- وإن لم يفصل الإخوان في هذه المسألة بما فيه الكفاية- إلا أن مساهمتهم فيها تُعد سابقة علمية متميزة؛ يمكن البناء عليها كما هو الحال في الدراسات اللسانية المعاصرة.

قائمة المصادر والمراجع

إخوان الصفا وخلان الوفاء، (ترجمة: تامر عارف)، (1995م) رسائل إخوان الصفا و خلان الوفاء، منشورات عويدات ، بيروت-باريس.

تامر، عارف، جامعة الجامعة، (د.ن) بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

السعران، اللغة والمجتمع رؤى ومناهج، (1968م)، دار المعارف، الإسكندرية.

السعران، محمود، (د.ن) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي،

ضيف، شوقي، (2008م) المدارس النحوية ، دار المعارف القاهرة.

عبد السلام، أحمد شيخ، (2006 م) اللغويات العامة، مطبعة الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.

عبد السلام، أحمد شيخ، (2010م) مقدمة في علم اللغة ، مطبعة الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.

عبد الهاد، نبيل؛ وآخرون (2009م)، مهارات في اللغة والتفكير، دار الميسرة، عمان.

الفخراي، أبو السعو أحمد، (1991م)، البحث اللغوي عند إخوان الصفاء، مطبعة الأمانة، القاهرة.

هدسون، (ترجمة محمود عيد) (1990م) علم اللغة الاجتماعي، القاهرة: عالم الكتب

الشبكة العنكبوتية

حسام الحداد، موقع الرئيسي لحوار المتمدن، المحور: الأدب والفن العدد (4211) تاريخ 10-9-2013

الساعة 07:17

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=377275>